متى ينتهى حكم الإخوان؟

فى كتابى «الأيام الأخيرة»، والذى صدرت طبعته الأولى فى يونيو ٢٠٠٨، توقعت أن يفوز الإخوان فى أول انتخابات بعد خلع مبارك، وأن يحصلوا على النسبة التى حصلوا عليها بالسحتوت، وأن يمتد حكم الإخوان لمصر لفترة تصل إلى أربع أو خمس سنوات.

وحدث ما توقعت، وما اعتبرته وقتها ثمنا فادحًا ثانيا يدفعه المصريون لحكم مبارك، فقد دفعنا الثمن الأول غاليا قبل خلعه، وندفع الآن ثمن السكوت الشعبى عليه طيلة ثلاثين سنة من الهوان، فقد انحدرنا إلى انحطاط تاريخى طويل المدى، وساد الركود الذى غيبنا عن سباق العصر، وتحولنا من دولة كانت تنافس كوريا الجنوبية رأسًا برأس فى التقدم والتصنيع والاختراق التكنولوجى حتى ما بعد حرب ١٩٧٣، وسقطنا من حالق إلى الفالق، وانتهينا إلى دولة تنافس ـ الآن ـ «بوركينا فاسو» على مؤشر الفساد الدولى، وكان ما كان من تجريف التربة الوطنية، وكأثر مباشر لتجريف الصناعة والزراعة والسياسة والثقافة، وتحولنا من مجتمع حى ناهض إلى غبار بشرى على أرصفة التسول فى الدنيا كلها، وطغت مشاعر البؤس واليأس، وهو ما خلق بيئة خصبة لنمو تيارات اليمين الدينى، والتى خاطبت بؤس المصريين كجمعية خيرية، وخاطبت يأسهم كجمعية دينية، وهو ما يفسر تضخم دور الكنيسة فى حياة المسيحيين المصريين، ويفسر ـــ أكثر ـــ تغول دور التيارات الدينية فى مصر كلها، ولم يكن لتسلط مبارك، ولا لنظامه الأمنى الوحشى، لم يكن لذلك أن يخفى الحقيقة، والتى بدت فيها تيارات اليمين الدينى ظاهرة بأمراتها وطقوسها فى الشارع المصرى، ومع خلع مبارك، زال الغطاء عن وجه المجتمع المصرى

المنهك، والذى انفصلت عرباته عن قطار التقدم الذى بلغ أقصى سرعاته فى الثلاثين سنة الأخيرة بالذات، ونقل شعوبا وأمما إلى ركب التقدم بعد سكنى التخلف لمئات السنين، وقد كنا مهيئين ــ قبل الثلاثين سنة ـ لكى نكون فى أول الصف، فإذا ببلادنا تخرج بالجملة من السباق، وتجر معها الأقطار العربية كلها إلى الهاوية السحيقة، وإلى وعى بدائى معصوب العينين، وإلى أفكار صحراوية مهينة لدين الإسلام وحيويته العظمى، وهو ما أدى إلى الصورة البائسة لنتائج أول انتخابات جرت بعد ثورة مصر الشعبية الكبرى، فقد زال الغطاء الملصق بالصمغ الأمنى، ورأى المصريون صورتهم الفعلية فى المرآة، وبذا اكتساح تيارات اليمين الدينى كأنه حكم الأقدار، ثم بدا حكم الإخوان كأنه غاية نصيبنا من الحياة الدنيا.

وأعرف أن البعض يفكر بطريقة أخرى، ويتصور أن حكم الإخوان لا راد له، وأنه ما إن يصل الإخوان إلى الحكم مرة، فلا تعود تسلم الجرة، ويظل الإخوان فى الحكم إلى يوم يبعثون، وإلى حد أن كاتبا كبيرا صدم قراءه فى حوار أخير، وتوقع أن يستمر حكم الإخوان لثلاثين ألف سنة، ومع كامل الاحترام للأشخاص الذين يفكرون بهذه الطريقة، ومع حفظ ألقاب الدكتوراه والأستذة والفذلكة، مع عظيم الاحترام لأشخاصهم، فإننى أعتقد أن هذه الآراء على قدر عظيم من الضلال، وبعيدة بالجملة عن أى تحليل اجتماعى وتاريخى مقنع، فظاهرة الإخوان ـ كأى ظاهرة سياسية ـ لها سياق بعينه، وقد صعدت إلى أعلى ذراها فى السنوات الأخيرة، ليس فى مصر وحدها، بل فى الأقطار العربية كلها، وليس لها أن تصعد أكثر، بل أن تبدأ رحلة الانكسار الدراماتيكى، والذى تبدو فيه كتمثال خشبى يتحطم فجأة، أو بالتدريج مع خلع أساساته، ومع الأخذ فى الاعتبار حقيقة مهمة، وهى أن ما ستصير إليه الأمور فى مصر، سوف يعود فيطبع بطابعه، ويسرى بنظرية «الأوانى المستطرقة» إلى الدنيا العربية بعامة، والذى يراقب الأمور بعناية فى مصر الآن، ويلحظ التحولات فى مزاج الرأى

العام، الذى يفعل ذلك بحياد عقلى بارد، سيصل إلى النتيجة بغير لف ولا دوران، وهى أن منحنى الإخوان يشهد هبوطا متواترا مؤثرا، ولا يبدو الهبوط عابرا، بل مطردا، وفى زمن قياسى مدهش، فقد حدث ما يمكن تسميته «صدمة الإخوان»، ومن السهل أن تلحظ ذلك فى الشارع أو فى المقهى، أو فى «التاكسى» أو فى «الأوتوبيس»، أو حتى فى «الميكروباص» أو «التوك توك»، وليس فقط فى برامج «التوك شو»، والمفارقة الملموسة فيما يجرى، أن تنظيم الإخوان يزداد قوة ومالا ومعنويات، ويكدس المليارات فوق المليارات من موارد مريبة، وتزداد مطامحه بفضل وجود رجاله عند مفاتيح المال والسلطة، ويواصل عمله الخدمى و«الخيرى» بنشاط فائق، ويتمتع بانضباط صارم يكفله مبدأ السمع والطاعة، لكن ذلك كله لا يجلب للتنظيم العتيد ـــ عمره ٨٥ سنة ـــ شعبية أكبر، بل تنحسر الشعبية باطراد، وبمعدلات تبدو أكبر مما كان متوقعا، ولسبب مفهوم، وهو أن الإخوان أثبتوا فشلا عظيما فى إدارة الحكم، وأبدت كوادرهم وقياداتهم بدائية مفزعة، وبدا أن الشهادات الدراسية التى حصلوا عليها مضروبة، بل ويمكن اعتبار كفاءتهم المتدنية دليلا عظيما على تردى مستوى التعليم فى مصر، بل قد يصح اعتبار محمد مرسى ـ الذى بدأ رئيسا منتخبا ـــ أسذج من جلس على كرسى حكم مصر فى تاريخها الألفى، فلا جدال فى أن الرجل لا يصلح لحكم بلد فى حجم مصر، بل ربما لا يصلح لإدارة مجلس قروى، وهذا التدنى المريع فى الكفاءة كان سببا مباشرا للصدمة الشعبية فى حكم الإخوان، غير أن السبب غير المباشر، أو قل «السبب الأعمق» بدا حاضرا بقسوة، وصدم الناس الذين تصوروا فى الإخوان عنوانا لعدالة الإسلام، فقد تبين بسرعة أن حكم الإخوان لا علاقة له بصحيح الإسلام، وأن الإخوان لا علاقة لهم بالشريعة، فقد كان الإسلام والشريعة مجرد وسائل جمع بها الإخوان أصوات الناس، لا ليقيموا عدالة الله فى خلقه، بل لتقوية «جماعة البيزنس» التى تحكم تنظيم الإخوان، ومليارديرات التوكيلات التجارية الذين يدفعون ويتحكمون فى

التوجيه الإخوانى، ومع الوصول إلى الحكم، بدت الصورة محبطة جدًا لقطاعات كبرى من جمهور الإخوان، والذين اكتشفوا ببساطة مدى تطابق «جماعة الإخوان» مع جماعة «مبارك»، فلهما ـ أى للجماعتين ــ ذات الاختيار الأساسى فى الاقتصاد والسياسة، وذات الولاء الأساسى لمصالح وأولويات الأمريكيين فى مصر والمنطقة، وكأننا يا ثورة لا رحنا ولا جئنا، وهو ما يفسر التراجع الدراماتيكى فى شعبية الإخوان، وبمعدلات تفوق ما توقعته فى كتابى «الأيام الأخيرة» عام ٢٠٠٨، وهو ما يرجح معه ألا يستمر حكم الإخوان ، فقد بدأت رحلة السقوط، سقط حكم الإخوان معنويا، وكما حدث لحكم مبارك فى أيامه الأخيرة، والباقى تفاصيل ومنعرجات ومنحنيات، وإلى أن تبدأ مراسم تشييع الجنازة.

"صوت الأمة" فى ١٨ من فبراير ٢٠١٣